التّماهي عند آباء الكنيسة الأوائل بين المثلنة والواقع التاريخي

د/ مخلوف بن تونس ساجية
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

الملخّص :

إنّ الطبيعة الصليبية التي نجدها في الحملات النصرانية الدعائية الموجهة ضدّ الإسلام، لا يتوانى في نسج قصص و أساطير، تعطي طابعا مثاليا للمسيحية عامة، و تحديدا لبعض الشخصيات في التاريخ الإفريقي المسيحي أمثال أوغستين، لا لشيء سوى الجزائريين على التّماهي *(Identification)* لهؤلاء، باتخاذهم قدوة، و تقليدهم باعتناق المسيحية، و هم يوهمونهم بأنّ ذلك «عودة إلى الأصل»، و أنّ هذا كفيل بمصالحتهم مع ماضيهم و بتحقيق تميُّزهم، و استرجاع توازنهم، و هويتهم المفقودة !. وهذا ما يتجلى من خلال مثلنة و تقديس أوغستين منذ العهد الاستعماري إلى يومنا هذا و أسطورة نصرانية سكّان منطقة القبائل خلال العصور المسيحية الأولى.

Résumè :

La nature crusade que nous trouvons dans des campagnes de propagande chrétienne contre l'Islam, n' hésiter pas à tisser des histoires et des légendes, qui donnent un parfait idéal du christianisme, et en particulier pour certains des personnages de l'histoire de l' afrique chrétienne, comme Augustin, rien que pour insiter les Algériens à l' identification pour eux. en les prenant comme idoles et modèles embrassant le christianisme. ils leur inflige que ce «retour à l'origine», est une reconsiliation avec leurs Histoire et une emmegence de leur caractère distinctif , et un réequilibrage de leur ames, et de leur identité perdu! Tout cela se manifeste par l'idéalisation et la révérence d'Augustin depuis l'époque coloniale à nos jours et la mise en exerge du mythe des kabyles chrétiens pendant les premières époques chrétiennes.

◄ تمهيـد:

يتعرض الإسلام منذ سنين ليست بالقليلة إلى حرب دعائية شعواء، غالبا ما تصوره على أنه دين إرهاب، فهو –كما يصور– «دين يحث على الإعتداء، و القتل، و التنكيل».و الغرب اليوم، ينظر إلى المغرب العربي عامة، و إلى الجزائر خاصة، على أنها الدولة المصدرة للإرهاب، ذلك بحكم كونها مسلمة من جهة، و من جهة أخرى بحكم تعرضها لهذه الظاهرة العالمية بشكل مبكر، مقارنة بباقي الدول العربية، و الإسلامية، بل و باقي الدول في العالم، بالإظافة إلى قربها الجغرافي من أوروبا عامة وما يربطها بها من علاقات، خاصة مع وجود جسر بشري، يتكون من عدد هائل من المغتربين، والذّي يربطها بفرنسا تحديدا.

في المقابل تقدّم المسيحية على أنها دين حب وتسامح، بدليل أن « المسيح –كما يزعمون– يحث أتباعه الذين يضربون على الخد الأيمن، أن يقدموا للمعتدي خدهم الأيسر»، متجاهلين تماما أمر المسيح أتباعه بحمل السيف، كما جاء في الإنجيل عن متى، فيما نصه: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفا» (متى 10: 34) ، و عن لوقا فيما نصه: «فَقَالَ لَهُمْ: لكِنِ الآنَ، مَنْ لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا» (لوقا 22: 36)، «فقالوا: يا رب هو ذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي» (لوقا 23: 38).

غالبا ما يتجاهل المسيحيون أيضا الحقائق التي سجلها التاريخ، و التي تؤكّد وجود العديد من الصراعات الدينية داخل المسيحية، لا نقصد هنا تلك التي نتجت عن الحروب الصليبية بين المسيحيين و المسلمين، و لا تلك الحروب الاستعمارية، التي غزى بها المسيحيون العالم، بما فيها أمريكا، حيث قضوا على سكانها الأصليين باسم المسيح، حتى لا يكاد يُرى لهم أثرا اليوم، إنما نعني تحديدا تلك الحروب الدينية التي نشبت بين المسيحيين أنفسهم، و التي أزهقت فيها أرواحا، و أسيلت دماءا، و يُتّم أطفالا و خرّبت بيوتا، و أحرقت العديد من المقدسات، بما فيها من كتب... و كل ذلك حدث باسم المسيح!!

إشتدّت معاناة البروتستانت في أوروبا عامة طيلة القرن السّادس عشر، مما أدى بهم إلى الدّخول في صراع بل مواجهةعسكريّة مع الكنيسة الكاثوليكيّة و مع السّلطة الحاكمة في آن واحد. نشبت حروب أهليّة دينيّة طويلة بين الفريقين في كلّ أوروبا، نذكر منها حرب الثّلاثين عاما[1]، و حرب الثّمانين عاما[2] و حرب البروتستنت الفرنسيّين[3]...& *LENOIRE TARDAN-MASQUELIER, 2000, p.p.630-631*

تسبّبت هذه الحروب الدّينيّة (و غيرها كثير) في مذابح دمويّة رهيبة، لم تتوقّف إلا باعتراف الكنيسة و الحكّام الأوروبيّين عامّة بحرّيّة المعتقد، وبالحقوق السّياسيّة و المدنيّة للبروتستانت. كان ذلك في صلح ويستيفاليا *(TRAITÉS DE WESTPHALIE)* لسنة 1648م بالنّسبة للأوربيّين عامة، (رستم، 2004 ص.ص. 158 – 162) و في مرسوم التّسامح لفرساي *L'ÉDIT DE TOLÉRANCE DE VERSAILLE*لسنة 1787م بالنّسبة للفرنسيّين. *LENOIRE & TARDAN-MASQUELIER, 2000, p.p.630-631*

دفع الإضطهاد الشّديد الذي تعرّض إليه البروتستانت في أوروبا بالعديد منهم إلى الهجرة من بلد إلى آخر داخل أوروبا، بحثا عن الأمان أمان لم يجدوه حقّا سوى في العالم الجديد (أمريكا) فهاجروا إليه بقوّة، و إلى أمريكا الشّماليّة تحديدا

حيث صاروا يشكّلون النّسبة الأكبر من السّكّان منذ سنة 1790م إلى يومنا هذا. *LENOIRE & TARDAN-MASQUELIER, 2000, p.p.630-631.*

لم تكن الأمور أفضل حالا في القرون الأولى لظهور المسيحية، التي تقوم أصلا على عقائد، تخفي في طياتها صراعا شديدا بين الله الأب و مخلوقاته نتيجة عقيدة «الخطيئة الأصلية»، و التي نتج عنها قطيعة بين الخالق و المخلوق – كما يزعمون – والتي بدأت مع أكل آدم للثمرة الممنوعة أو التفاحة بإيعاز من حواء، و امتدت هذه القطيعة إلى أن جاء المسيح.بعدها جاء «الصلب و الفداء»[4] كحل وحيد لإصلاح العلاقة مع الرّب، هذا بعد أن أخفق كل الأنبياء في ذلك! عملية «الصلب والفداء» نفسها جاءت نتيجة صراع شديد بين اليهود والمسيح وأتباعه، بالإضافة إلى الرومان الذين طبقوا قرار الصلب، بإيعاز من اليهود!!

رغم كل هذه الصراعات الموجودة في طيات الدّين و التاريخ المسيحي، تُقدّم المسيحية لأبناء شمال إفريقيا عامة، و لأبناء الجزائر خاصة، و تحديدا للذين يعانون من إشكالية الهوية من سكّان منطقة القبائل كخير بديل للإسلام، و هم يوهمونهم بأن هذا «الدّين المسالم»، دين محبة و سلام، عكس الإسلام الذي «غزى ديارهم –كما يدّعون– و أخرج آباءهم من المسيحية مكرهين، ليدخلهم بالسيف، في دين تسفك فيه الدّماء باسم الله، و تخرق فيه كل القيم الأخلاقية، و الحقوق الإنسانية»!!

هذه بعض الأوصاف المشينة التي نجدها في الحملات الدعائية الموجهة ضدّ الإسلام، في المقابل لا يتوانى الغرب في نسج قصص و أساطير، تعطي طابعا مثاليا للمسيحية عامة، و تحديدا لبعض الشخصيات في التاريخ الإفريقي المسيحي، أمثال أغستين، ذلك لا لشيء سوى لحثّهم على التّماهي *(Identification)* لهؤلاء، باتخاذهم قدوة وتقليدهم باعتناق المسيحية وهم يوهمونهم بأن ذلك «عودة إلى الأصل»، وأن هذا كفيل بمصالحتهم مع ماضيهم وبتحقيق تميُّزهم و استرجاع توازنهم وهويتهم المفقودة!

◄1 – تحديد بعض المفاهيم:

1-1التماهي(L'identification):

هي آلية دفاعية، وفقا لنظريّة التّحليل النّفسي وهي التّشبّه بمن نحبّ، أو بمن نريد الإنتماء إليهم سواء الوالدين، أو الأصدقاء، أو أي جماعة أخرى يرغب المرأ في الإنظمام إليها. و التّماهي مصطلح يحمل حسب لالاند *(LALANDE)* معنيين و هما:

◆ معنى التّعيين (من فعل عيّن أي حدّد)، أي الإقرار بأنّ هذا الشّيء هو عينه، إمّا عدديا، و إما من حيث النّوع، من مثل الإقرار بأنّ هذا الشّيء ينتمي إلى فئة معيّنة...، أو حين نقرّ بأنّ فئة من الواقع، قابلة لأن تُردّ إلى فئة أخرى...

◆ معنى التماهي: أي أن يصبح فردا ما مطابقا لشخص آخر، أو الفعل الذي يصبح فيه كائنين متطابقين في الفكر، أو في الواقع، كلّيّا أو كنتيجة ثانويّة. (عن لابلانش و بونتاليس، 1985م، ص. 198).

نعثر على هذين المعنيين عند فرويد، إذ يصف العمليّة التي تترجم علاقة التّشابه، أو علاقة «و كأن»، من خلال استبدال صورة بأخرى أو من خلال «التّعيين»، باعتبارها مميّزة لعمل الحلم. ذلك هو المعنى الذي ورد في النّقطة (أ) عند لالاند، إنّما

ليس للتّعيين هنا قيمة معرفيّة: فهو مجرّد عمليّة نشطة تستبدل هويّة جزئيّة، أو تشابها كامنا بهويّة كلّيّة. ولكنّ هذا المصطلح في التّحليل النّفسي يحيلنا أساسا إلى معنى «التّماهي» (أي النّقطة الثّانية عند لالاند) (لابلانش و بونتاليس، 1985م ص. 198) وعليه يتقاطع مفهوم «التّماهي» بهذا المعنى (الثّاني) في الإستعمال الشّائع مع سلسلة من المفاهيم النّفسانيّة من مثل: المحاكاة، التّقليد، المشاركة الوجدانيّة التّعاطف، العدوى العقليّة، و الإسقاط...

ووفقا للإتّجاه الذي يحدث فيه التّماهي إقترح بعض الباحثون ضرورة التّمييز بين «التّماهي الغيريّ النّزعة» (كما يقول شيلر *CHILLER*) أو «التّماهي الجاذب» (كما يفضّل أن يسميه فالون *WALLON*) و المتمثّل في تماهي المرء شخصه الخاص، بشخص آخر (أو تشبّهه بالآخر)، و بين «التّماهي ذاتي النّزعة» أو التّماهي «الطّارد» حيث يماهي الشّخص الآخر، بشخصه الذّاتي هو. (عن لابلانش و بونتاليس، 1985م، ص. 198) و في حالة تواجد هاتان الحركتان الديناميكيتان، التي تنمّ عن عمليّة تفاعليّة نشطة يتشكّل الضمير «نحن» *(LE NOUS)*، أو الهويّة الجماعية.

1 – 2 الهويّة:

في اللّغة مشتقّة من الضّمير هو . أمّا مصطلح «الهوَ هو» المركّب من تكرار كلمة هو، فقد تمّ وضعه كاسم معرّف بأل ومعناه «الاتّحاد بالذّات». ويشير مفهوم الهويّة إلى ما يكون به الشيء «هو هو»، أي من حيث تشخّصه وتحقّقه في ذاته، وتمييزه عن غيره فهو وعاء الضّمير الجمعي لأيّ تكتّل بشريّ، ومحتوى لهذا الضمير في الوقت نفسه، بما يشمله من قيم وعاداتٍ ومقوّمات، تكيّف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها. *(http://mawdoo3.com)*

أما اصطلاحا فتعرف الهوية على أنهاعبارة عن سماتٍ تميّز شخصاً عن غيره أو مجموعة عن غيرها. و هي الوعي بالذّات الثقافيّة والإجتماعيّة، أو هي الخصوصيّة و الذّاتيّة، التي تتشكل وفقا لثقافة الفرد ولغته وعقيدته وحضارته وتاريخه، و هي غير ثابتة وإنّما تتحوّل تبعاً لتحوّل الواقع. *http://mawdoo3.com*

1 – 3 المثلنة IDEALISATION:

هي اشتقاق من كلمة مثالي *(IDEAL)*:التي تعرف لغة في قاموس لاروس *(LAROUSSE)*بأنه ما يتميّز بكل الصفات الفريدة لنوعه، غير أن ذلك يبدو صعب التحقيق في الواقع. أو أنه ذلك الذي نسند إليه كل صفات الكمال، و التي تعتبر مثالية للدور الذي يقوم به، و للوظيفة و المكانة التي يحتلها. هذا يفترض وجود عملية المثلنة *(IDEALISATION)* التي تعني «اصطلاحا جعل الشيء أو الشخص مثالي» بمعنى آخر تمجيده. *http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais*

والمثلنة في التحليل النفسي هي عملية نفسية،تُرفع بواسطتها صفات و قيمة الموضوع (أو الشخص المدرك و المعروف بخصائص ما) إلى مرتبة الكمال. يساهم التّماهي للموضوع الممثلن في تكوين و إغناء الأركان التي تسمى مثالية عند الشخص (أنا مثالي ومثل أعلى للأنا) (لابلانش و بونتاليس، 1985م ص. 464).

◄ 2 – اختلاق الاستعمار الفرنسي لأزمة الهويّة عند الجزائريين عامة و سكان منطقة القبائل خاصة:

عُرف الاستعمار الفرنسي بمحاولاته الحثيثة لتفتيت الشّبكات الإجتماعيّة في الجزائر من خلال الحلقات الأضعف فيها، كما سعوا إلى أن يضعفوا روابط القيم التّقليديّة المنظِّمة للعلاقات داخل هذه الشّبكات، وأن يقتلوا الشّعور بالمصير المشترك بسياسة «فرّق تسد»، التي لطالما انتهجوها، والتي كانت تقوم أساسا على التّمييز بين الجزائريّين من خلال نشر الخرافات و الأساطير و الأكاذيب الكفيلة بتشتيتهم و غرس الكره و الحقد فيما بينهم.

«لقد تعلّم أتباع النّزعة البربريّة...على أيدي فرنسيّين، و على أيدي الآباء البيض، فغرسوا في نفوسهم كرههم لكلّ ما هو عربي، و علّموهم بالفرنسيّة» أنّ العرب غزاة، و أنّ العربيّة لغة غازية و أنّ البربر جرمان هاجروا من أوروبا«ليبرّروا «فرنسة الجزائر و فرنسيّتها» قبل 1962م...» (بن نعمان 1997م، ص. 37)

فعل المستعمر الفرنسي ذلك لحثّ البربر عامّة، وسكّان منطقة القبائل تحديدا على التّماهي للأوروبيّين عامّة، و للفرنسيّين خاصّة، و الانفصال عن الأمّة العربيّة و الإسلاميّة قاطبة. لم يتردّد المستشرقون الفرنسيّون في تحريف التّاريخ لتحقيق مطامعهم الاستعماريّة، حيث غُرس في عقول بعض القبائل أن سلفهم روماني، و حتى آري، و هذا يعني تاريخيّا أنّهم أشدّ قرابة للفرنسيّين (بن نعمان1997م، ص. 29) ، و لم يكتفوا بالتّشكيك في عقيدة القبائل الإسلاميّة، فأشاعوا أنّ أجدادهم الأمازيغ قاطبة كانوا مسيحيّين، و أنّ تنصّر القبائل من جديد ما هو سوى عودة إلى الأصل.

لقد حفر المستشرقون الأوروبيّون في أعماق تاريخ شمال إفريقيا، و تتبّعوا آثار الكنيسة في هذه المنطقة العريقة، و بحثوا عن آثار الصّليب في كلّ مكان بما في ذلك على أجساد بناتنا، من أجل دعم هذه المزاعم حيث يصف الجنرال دوماس أوجين(*DAUMAS EUGÉNE.1803-1871*) سنة 1855م، الوشم الذي تحمله المرأة القبائليّة على وجهها فيقول ما نصّه: »عادة ما تحمل المرأة القبائليّة وشم على شكل صليب... يخلّد القبائل هذه العادة دون أن يدركوا أصلها، و هي كما يبدو تعود إلى الحقبة المسيحيّة. (*DAUMAS*, 1988, p. 194)

يستند دوماس لتبرير موقفه هذا إلى «رفض الطّالب و المرابط الزّواج بامرأة تحمل وشما على جسدها، حيث يحملانها على نزعه قبل الزّواج» (*DAUMAS*, 1988, p. 195)، متجاهلا في ذلك أمرين أساسيّين:

أوّلهما أن الإسلام يحرّم الوشم بكلّ أشكاله ثانيهما أنّ الدّراسات التّاريخيّة، و دراسة الآثار التي قام بها المستشرقون في الحقبة الاستعماريّة أكّدت أنّ مناطق شمال إفريقيا التي بقيت خارجة عن الحكم الرّوماني لم تطلها المسيحيّة، نذكر منها منطقة القبائل، و الأوراس و البيبان و كل السّلسلة الجبلية لموريطانيا القيصريّة. (*voir MESNAGE*, 1913, p.p 440-632)

يؤكّد كلّ من هنوطو و لوتورنو(*HANOTEAU ET LETOURNEUX*) في كتابهما عن «التّقاليد القبائليّة» (*Traditions kabyles*) أن القبائل قد تأثّروا بالأكاذيب التي روّجها المستعمر الفرنسي عن الأصول المسيحيّة للقبائل فيما نصّه: « لم يكن في الواقع القبائل يظنّون –من قبل مجيئنا– أنّ أسلافهم كانوا نصارى. إنّ معلوماتهم التّاريخيّة لا تمتدّ إلى هذه الفترة الزّمنيّة البعيدة. و إن كان البعض منهم

يردّد ذلك، فهذا لأنّهم سمعونا نقول هذا القول، وهم يرغبون في التّودّد إلينا بتكراره، و ما يفعلون ذلك إلا لأهداف شخصيّة». (*MESNAGE*, 1913, p.626).

أمّا عن الوشم على شكل صليب على أجساد القبائليات، و بعض الرّجال، أو حتى بعض الصّلبان المنقوشة على بعض الأبواب، و بعض الصّناديق في منطقة القبائل عامّة، فيرى هنوطو و لوتورنو أنها (الصّلبان) ليست منتشرة بالقدر الكافي، الذي يجعلنا نعتبرها ناتجة عن عادات قديمة، و عليه هما يعتبرانها ناتجة عن خيال الفنّانين لا غير. (*in MESNAGE*, 1913, p.627)

يشاطر فان غينيب *(VAN GENNEP)* نفس الرّأي مع هنوطو و لوتورنو، فبعد أن درس الأشكال المرسومة على الأواني الفخّاريّة في منطقة القبائل لاحظ أنّ معظم الأشكال عبارة عن أشكال هندسيّة مثل المربّع، و المثلّث، و المعيّن، و غالبا ما تملأ هذه الأشكال بعدّة طرق، غير أنّ أبسطها هو الرّبط بين الزّوايا الأربعة للمربّع، أو المعيّن بخطّ مستقيم، و عليه نحصل على الصّليب. (*in MESNAGE*, 1913, p.627) يرى مسناج أنّ هذا التّفكير سليم جدّا وهو يفسّر سبب وجود الصّلبان في رسومات كلّ الشّعوب البدائيّة منها و المتحضّرة. (*MESNAGE*, 1913, p.627)

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأسلوب المخادع للتّنصير الجماعي (الذي يعتمد على خلق أزمة هويّة عند القبائل) لم ينطلي إلا على عدد قليل جدّا من السّذّج، من ذوي الحاجة، حيث فشل المنصّرون في دفع سكان منطقة القبائل إلى التّماهي للفرنسيّين أو للتّنصُّر، نظرا لارتباط النّصرانيّة بالثّقافة الغربيّة التي كان القبائل —في الماضي القريب– يرفضونها قلبا وقالبا.

هذا «جعل المسلمين ينظرون إلى النّصرانيّة باعتبارها «ديانة أجنبيّة».. ديانة الغرب.. الذي كان غالبا، إن لم يكن دائما المستعمر، و المستغلّ والعنصري، و الجلاد..فزاد ذلك من ارتباط المسلم بإسلامه، باعتباره المعبّر عن هويّته الحضاريّة.. و عمّق من نفوره من النّصرانيّة، باعتبارها ديانة الثّقافة الأجنبيّة و الاستلاب الحضاري.» (عمارة 2007م ص. 99)

زد إلى ذلك «أنّ الذين حدث أن تحوّلوا عن الإسلام إلى النّصرانيّة، قد اقتُلعوا، لا من الإسلام وحده، كدين، و إنّما من الثّقافة الوطنيّة و القوميّة.. فكانوا كالسّمك الذي انتزع من الماء!! لقد غدو أجانبا في محيطهم، معزولين عن ذويهم، حتى لقد نظر إليهم مواطنوهم كغرباء..بل كخونة..ومن ثمّة فإنّهم تجاوزوا حدود العجز عن نشر النّصرانيّة في محيطهم، إلى حيث أصبحوا عالة و عبئا على إرساليّات التّنصير.» (عمارة، 2007م، ص.ص. 99 – 100).

حاول المستعمر الفرنسي أن يجد استراتيجية جديدة، تجعل من النصرانية «ديانة أكثر ألفة» حتى تلقى القبول أكثر بين الجزائريين، و لم يتوانى في خلق الأساطير و الخرافات و الأكاذيب، التي يمكن أن تظمن تماهي الجزائريين للنصارى، فعلوا ذلك عن طريق مثلنة بعض آباء الكنيسة الأوائل، نخص بالذكر ترتليانوس(*TERTULIEN*، ما بين 150 و 160م – 220م)، و قبريانوس (*CYPRIEN* في حوالي 200 م–258م)، و أغستينوس (*AUGUSTIN* 354 م–430 م)، والتّذكير بأصلهم الأمازيغي وبالأصول النّصرانيّة لسكّان شمال إفريقيا عامّة وبسكّان منطقة القبائل خاصّة.

◄ 3 – واقع تاريخ الكنيسة الإفريقية و آباؤها الأوائل:

منذ احتلال الجزائر في سنة 1830م، و الذي رأت فيه الدّوائر الكنسيّة فتحا مسيحيّا مبينا، بدأ الحلم القديم و المتمثّل في إعادة هذه البلاد إلى حظيرة المسيحيّة يراود القائمين على هذه الحركة فكان من أوّل الأعمال التي قامت بها هي محاولة كتابة تاريخ الكنيسة الإفريقيّة، و العودة إلى العهدين الرّوماني و البيزنطي، لتعطي للعمل التّنصيري أسسا تاريخيّة تضرب جذورها في الأعماق، و تعود إلى قرون بعيدة، و تُظهر أنّ الفتح الإسلامي و انتشار الإسلام في هذه البلاد كان حدثا طارئا، نحا بالحياة فيها منحا خاطئا يقتضي التّصحيح... (حسين 1995، ص.72).

يعدّ الرّاهب الكاثوليكي يوسف مسناج *JOSEPH MESNAGE*، 1859م–1922م من أبرز الذين كرّسوا حياتهم لإحياء «أمجاد الكنيسة الإفريقيّة»، حيث نشر سنة 1903م مقاله الموسوم «صفحة حول تاريخ الكنيسة الإفريقيّة القديمة» *UNE PAGE DE L'HISTOIRE DE L'ANCIENNE ÉGLISE D'AFRIQUE* و في سنة 1912م كتب بحثه الموسوم «إفريقيا المسيحيّة: أسقفيّات وآثار قديمة» *L'AFRIQUE CHRÉTIENNE: ÉVÊCHÉS ET RUINES ANTIQUES*، ثمّ بحثا آخر سنة1913م حول «رومنة شمال إفريقيا» *LA ROMANISATION DE L'AFRIQUE; TUNISIE, ALGÉRIE, MAROC*.

وبعدها مباشرة، وفي نفس السّنة، أنجز بحثا مطوّلا حول أصول المسيحيّة و تطوّرها وانتشارها في شمال إفريقيا، تحت عنوان:

LE CHRISTIANISME EN AFRIQUE ORIGINES, DÉVELOPPEMENT, EXTENSION، وفي سنة 1915م ألّف كتابا في جزئين، موسوم «المسيحيّة في إفريقيا» *LE CHRISTIANISME EN AFRIQUE*.

أثارت هذه البحوث عامّة ضجّة كبيرة في الأوساط الثّقافيّة و الكنسيّة، و الكثير من التّقريظ (أو النّقد الإيجابي)، و انهالت رسائل الإعجاب و التّشجيع على صاحبها، نذكر منها ماكتبه الأسقف جوتي جيرولامو ماريا (*GOTTIGIROLAMO MARIA*، 1834م–1916م) حول الكتاب مهنئا مسناج فيما نصّه: «لكم منيّ أجمل التّهاني على دراستكم التي تهدف إلى تسليط الأضواء على أمجاد الحضارة المسيحيّة في إفريقيا الرّومانيّة.» (عن حسين، 1995، ص.72)

حاول مسناج في أوّل الأمر أن يعطي طابعا مقدّسا للحركة الاستعماريّة بشقّها التّنصيري، حيث زعم أنّ تلاميذ المسيح (أو الحواريّين بالمعنى القرآني والرّسل بالمعنى المسيحي) هم اللّذين نقلوا المسيحيّة من فلسطين –حيث تلقّى المسيح الرّسالة– إلى مختلف أنحاء العالم، مرورا بإفريقيا. (*MESNAGE*, 1913, P.P.390–397) غير أنّ كلّ من دوكري فرونسوا (*DECRETFRANÇOIS*) و فانتار محمد (*FANTAR MHAMED*) يعتبران هذا الإدّعاء مجرّد أسطورة (*DECRET ET FANTAR*, 1998, P.277).

يشكّك أوندري جوليان شارل (*ANDRÉ JULIEN CHARLES*) أيضا في الأصل الحواري للكنيسة الإفريقيّة، و هو يتّهم الذين يقولون ذلك بالذّاتيّة في قوله: «حاول علماء متديّنون إرجاع التّبشير في البروقنصليّة (تونس حاليا) و طرابلس إلى وقت الرّسل (أو الحواريّين بالمفهوم القرآني) بحميّة

شديدة بدلا من الدّقة.» (*JULIEN*, 1994, p 222).

تساند أرنولد دومينيك (*ARNAULD DOMINIQUE*) هذا الموقف فيما نصّه: «لم تزعم الكنيسة الإفريقيّة أنها رسوليّة (صفة ما يطابق رسالة الحواريّين)، كما هو الأمر بالنّسبة للكنيسة الإسكندريّة و الرّومانيّة، و لم يدّعي أيٌّ من الكتّاب الأوائل ذلك. لكنّ الأساطير حول ذلك تعدّدت: فمنها ما يدّعي أن القدّيس بطرس (*S.PIERRE*) جاءبنفسه إلى إفريقيا، ثم ترك وراءه تلميذه كريسونس (*CRESCENS*) كأوّل أسقف لقرطاجة، و منها ما يزعم أن القديس مارك (*S.MARC*) جاء من الإسكندريّة لتبشير شمال إفريقيا، بعضها يقول أن فوتين، سامرية الإنجيل (*PHOTINE, LA SAMARITAINE DE L'ÉVANGILE*)، هي التي نصّرت قرطاجة، و منها ما يؤكد أنالقدّيس متيّ (*S.MATHIEU*) و القدّيس سمعان القانوي (*S. SIMON LE ZÉLOTE*) هما أولّ الرّسل في إفريقية. و قد حاول بعض الكتّاب الجدد إثبات ذلك.» (*ARNAULD*, 2001, p 59).

تنتقد أرنولد دومينيك مسناج فتقول: «دافع مؤرّخون مثل مسناج طويلا على فكرة أن التّنصير في هذه المنطقة إن لم يرجع للرّسل أنفسهم فإنه -على الأقل- يعود لعهدهم، لكن هذه الأطروحة غير مقنعة. في الحقيقة لم تنشأ هذه الرّواية حول رسوليّة الكنيسة الإفريقيّة إلا إبتداءا من القرن السّابع للميلاد، و ذلك كما يبدو انطلاقا من الشّهادات الأبوكريفا (أو المحرفة) لبطرس.» (*ARNAULD*, 2001, p 59)

تجدر الإشارة إلى أنّ مسناج لم يدافع عن أسطورة «رسوليّة الكنيسة الإفريقيّة» بدافع التّعصّب الدّيني فحسب، و لا بدافع الجهل، أو الخطأ، حيث أنّه كان يعلم جيّدا أنّ أوّل آثارٍ للكنيسة الإفريقيّة عُثر عليها في شمال إفريقيا تعود إلى أواخر القرن الثّاني للميلاد، و هذا بشهادة صدرت عنه فيما نصّه: «لم تعطي الكنيسة الإفريقيّة –التي ولدت وفق كلّ الاحتمالات منذ السّنوات الأولى لدعوة الرّسل– دلائل مؤكّدة على وجودها إلا في وقت متأخّر جدا. في الواقع، لم يُرفع السّتار حول أصولها و تطوّراتها الأولى إلا على مشهد شهداء سيليوم، (منطقة قرب قرطاجة، لكنها غير معروفة بدقّة) سنة 180 ميلادي». (*MESNAGE* , 1913, P.440).

هذا ما توصّل إليه أيضا كلّ الدّارسين المعاصرين لتاريخ الكنيسة الإفريقيّة، نذكر منهم أرنولد دومينيك، التي تقول: «تعود أول وثيقة تاريخيّة مكتوبة، تتحدّث عن وجود طوائف مسيحيّة متجذّرة في إفريقيّة، إلى سنة 180 ميلادي[5].» (*ARNAULD*, 2001, P 61).

يؤكّد كلّ من لانسل (*LANCEL*) و ماتيي (*MATTEI*) كذلك نفس الفكرة، مع إضافة توضيح هام فيما يخصّ الجزائر تحديدا، حيث يجزمان أن «أقدم الدّلائل حول الوجود المسيحي في نوميديا و موريطانيا تعود إلى النّصف الأول من القرن الثّالث، و بدقة أكبر إبتداء من نهاية القرن الثّاني للميلاد.». (*LANCEL ET MATTEI*, 2003, P.15).

تتمثّل هذه الدّلائل أساسا –حسب هذين الباحثين– في أسماء عدد من الضّحايا المسيحيّين من السّكّان الأصليّين لشمال إفريقيا، عُثر عليها منقوشة في مدينة مادور[6]. بالإظافة إلى نقش آخر في تيبازة، يعود لسنة 238م ، و هما يؤكّدان أنّه أوّل نقش، لرمز مسيحي في المنطقة. (*LANCEL* et *MATTEI*, 2003, p.10).

هذا يدفعنا –في الواقع– إلى الجزم بأنّ مزاعم

مسناج كانت نتاج لاستراتيجيّة استعماريّة مدروسة، حيث كان يسعى إلى زرع الحماس في صفوف النّصارى بإقناعهم بقدوسيّة المهمّة التي هم مقدمون عليها، و المتمثّلة في تنصير «الكفّار» من الجزائريّين(كما يزعمون)، هذا من جهة، أما من جهة ثانيّة، فإنّ الهدف من زرع مثل هذه الأساطير هو جذب الجزائريّين السّذّج، الذين يقدّرون تلاميذ المسيح لما لهم من مكانة في القرآن نفسه، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية 52).

هكذا إذن حاول النّصارى الفرنسيّين أن يقدّموا تاريخ الكنيسة الإفريقيّة بشكل جذّاب، معتمدين في ذلك على الأساطير و المغالطات، و الأكاذيب حتى يلقى الاستعمار بسياسته الإدماجيّة قبولا بين الجزائريّين. و لعلّ من أكبر المغالطات التي اعتمدوا عليها، زعمهم «انتشار المسيحيّة في كلّ شمال إفريقيا»، حيث أنّ جلّ الدّراسات أكّدت أنّ عدد المسيحيّين الأفارقة كان قليلا جدّا مقارنة مع باقي السّكان، الذين ظلّوا وثنيّين إلى دخول الإسلام في القرن السّابع الميلادي.

جزم كلّ من دوكري و فنتار بأن الطّوائف المسيحيّة ظلّت قليلة جدا بين السّكان في شمال إفريقيا في حقبة الاستعمار الرّوماني (*DECRET et FANTAR*, 1998,p.280). يتفق مونسو(*MONCEAUX*)[7]، مع دوكري و فنتار حول فكرة «بقاء المسيحيّين أقليّة في هذه المنطقة رغم المجهودات المبذولة»، أو كما قال: «ضلّ المسيحيّون في إفريقيا أقليّة رغم النّجاحات التي حقّقتها دعايتهم. بقيت السّلطات المحليّة، و تقريبا كل الطّبقة الأرستقراطيّة و البرجوازيّة، و تقريبا كلّ سكّان الرّيف و كلّ السّكّان الأصليّين وثنيّين. حتى في المدن (حيث تمركز المسيحيّون)، كانت حشود المشركين (الوثنيّين) تطوّق الجماعات الصغيرة من المؤمنين (المسيحيّين).»(*in MESNAGE* ,1913, p. 493)

ظلّ عدد الوثنيّين هو الغالب في إفريقيا حتى عهد أوغستين (القرن الخامس الميلادي)، الذي كتب لزميل له، الأسقف هيسيشيوس دو سالون (*HESYCHIUS DE SALONE*) سنة 419م ليقنعه بأن نهاية العالم لم تحن بعد، بدليل أن العديد من الأفارقة ضلّوا وثنيّين[8]، فقال: «يعتقد قداستكم أن هذه الدّعوة العالميّة للكلام المقدّس قد تمّت بفضل الرّسل (بمعنى الحواريّين)، لكنّني قد أثبتّ لكم عن طريق الوثائق أن زعمكم خاطئ، لأنه في الواقع مازال يوجد بيننا، أي في إفريقيا، عددا غير متناهي من الأمم البربريّة، التي لم تبلّغ الرّسالة (الإنجيل) بعد. إننا ندرك ذلك يوميا، من خلال المعتقلين، الذين يصلون إلينا من هذه القبائل، هؤلاء المعتقلين الذين استعبدهم الرّومان. حقيقة، بدأ منذ سنوات قليلة، عدد قليل جدا، و نادر من هذه الشّعوب، التي تعيش على الحدود الرّومانيّة في سلام، و الخاضعة للإمبراطوريّة (الرّومانيّة)...، في إعتناق الدّين المسيحي، و كذلك قادتها، لكنّ القبائل التي تقطن في الأراضي الدّاخليّة و غير الخاضعة للقوّة الرّومانيّة، لا زالت غريبة تماما عن المسيحيّة... »(*in ARNAULD*, 2001, p. 151- 152)

بُرز هذه الشّهادة لأوغستين جليّا أن التّنصير في إفريقيا كان فعلا استعماريا، حيث جاء نتيجة للإحتلال الرّوماني، و ظلّ لصيقا به حتى سقوط الإمبراطوريّة الرّومانيّة في القرن الخامس للميلاد. بالتّالي، ضلّت المسيحيّة حبيسة الحدود الرّومانيّة، إذ أنها لم تتجاوز هذه الحدود إلا نادرا، حيث بلغت عددا قليلا جدا و نادرا من القبائل الخاضعة للسّلطة الرّومانيّة، و المتواجدة على حدود إمبراطوريّتها، على

حسب تعبير أوغستين نفسه.

يمكن أن نستدلّ على ذلك أيضا في كون كلّ مناطق شمال إفريقيا، التي بقيت خارجة عن الحكم الرّوماني لم تطلها المسيحيّة، نذكر منها منطقة القبائل و الأوراس و البيبان و كل السّلسلة الجبليّة لموريطانيا القيصريّة *(MESNAGE, 1913, P.P 494-495)* و هذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على وجود عامل التشبّه بالرّومان والإندماج معهم، أي أن معظم من اعتنق المسيحيّة من السّكان الأصليّين كانوا حتما في اتصال مباشر مع الرّومان، «فهم —على حسب تعبير مسناج— أشخاص أو على الأكثر جماعات قبلت عادات سادة البلاد، لأنها كانت في خدمة بعض العائلات الرّومانيّة أو كانت تربطها بهم علاقة تجاريّة، أما فيما يخصّ العديد من القبائل الليبيّة التي كانت في غرب وجنوب نوميديا و في موريطانيا فلا يبدو أنها تأثّرت بالمسيحيّة، و لا بحضارة الشّعب الرّوماني السّائد» آنذاك.(*MESNAGE*, 1913, p 494).

تجدر الإشارة إلى أنّ معظم الدّراسات التّاريخيّة قد بيّنت أيضا أنّ معظم سكّان شمال إفريقيا، الذين اعتنقوا المسيحيّة (و هم جماعات صغيرة جدّا كما سبق أن وضّحنا) كان إيمانهم ضعيفا جدّا، حيث ارتدّ عن المسيحيّة العديد من النّاس، خاصّة في فترات الإضطهاد المختلفة، ذلك بشهادة ساكسر الذي قال ما نصّه: «لا شكّ أن المشكلة الحقيقيّة بالنّسبة لعهد القديس قبريانوس[9]هي التّعرف على عدد المسيحيّين داخل الوسط الوثني في إفريقيا قبل الإضطهاد وعدد المسيحيّين الذين ثبتوا على دينهم بعد ذلك. تكاد تكون الإجابة على السّؤال الأوّل مستحيلة، أما بالنّسبة للسّؤال الثّاني، فيمكن أن نقول و بكل بساطة أن عدد المؤمنين الثّابتين على المسيحيّة كان ضئيلا.» (*SAXER*, 1969 , p. 64).

عند وصف قبريانوس لطريقة ارتداد العديد من المسيحيّين المحلّيّين في هذه الفترة قال: «لم ينتظر بعضهم أن يتم توقيفهم للصّعود إلى مقر السّلطة (الكابيتول)، و لا حتى استجوابهم لإنكار تنصّرهم. هُزم العديد منهم قبل موعد المعركة، لقد طرحوا أرضا دون أي مقاومة، و لم يكن لهم شرف البروز كضحايا القهر و الإجبار. كنا نراهم يسرعون طواعية نحو ميدان روما (الفوروم)، يعجّلون إنكار الرّوح، كأنهم كانوا يتوقون إلى ذلك منذ دهر طويل، و كأنهم يغتنمون فرصة طالما تمنوها. كان عدد الذين بادروا بالرّدة كبيرا جدا، ممّا دفع القضاة إلى تأجيل مقاضاتهم إلى الغد. و كم منهم وصل به الأمر أن يطلب ألا يؤجل كفره المميت!»(*in JULIEN*, 1994, p 245) يؤكّد مسناج أيضا أنّ «المشهد الذي قدّمته طائفة قرطاجة أساسا، في سنة 250 ميلادي، في عهد إضطهاد ديسيوس كان مخزيا، حيث كان المرتدّون (عن المسيحيّة) يعدّون بالآلاف.» *MESNAGE* .1913, p. 478

يفسر قبريانوس هذه الرّدة الجماعيّة و المكثّفة بنقص اليقين عند الأشخاص، الذين ضلّوا—كما قال– وثنيّين و لو جزئيا. كان الدّعاة للمسيحيّة يسعون وراء توفير أكبر عدد ممكن من الأتباع، دون مراعاة لأخلاقهم أو إخلاصهم، كان خضوعهم لشهواتهم الجنسيّة أو لإمتيازات مادّيّة يدفعهم لقبول عدة تنازلات، بما فيها الزّواج مع غير المسيحيّين. (in *JULIEN*, 1994, p 243)

لم تقتصر الرّدّة على عامّة النّاس، إنما مسّت بعض الأساقفة أنفسهم، ألائك الذين وصفهم قبريانوس بفساد الأخلاق، و السّعي وراء المال ذلك على حساب مهامهم الدّينيّة و واجباتهم الأخلاقيّة. (*in JULIEN*, 1994, p 243) و لم يكتفي بعض رجال الدّين المسيحيّين بالارتداد عن دينهم بل أنهم قادوا العديد من المسيحيّين نحو الرّدة أيضا.

(*MESNAGE*, 1913, P 479).

ظلّ الأمر على ما هو عليه في عصر الوندال حيث جزم الأسقف دوشسن (*DUCHESNE*) أن عدد المرتدّين في هذه الفترة كان كبيرا جدا وذلك بين كلّ الصّفوف و المراتب الكنسيّة، بما فيها من أساقفة، و قساوسة، و شمامسة، حيث قبلوا بالتّعميد الأريوسي[01]، و هم بذلك-على حسب قول دوشسن- يعترفون بأنّهم لم يكونوا كاثوليك قط. (*inJULIEN*, 1994, P.299).

إنتقدت أرنولد دومينيك سكّان شمال إفريقيا لارتدادهم المستمرّ عن المسيحيّة الكاثوليكيّة بشدة على لسان سالفيان (*SALVIEN*)، أحد الذين عايشوا هذه الأحداث في عهد الوندال، حيث قال بمرارة: « لم تكن إفريقيا هذه غير بركة كبيرة مليئة بكلّ الرّذائل، و على رأسها الكذب، الذي يبدو أنّهم (أي سكّان شمال إفريقيا) قد تخصّصوا فيه، هذا باستثناء عدد قليل جدا من التّقاة.» (*in ARNAULDE*, 2001 , p.180 .)

أصدر سالفيان في قوله هذا حكما قاسيا جدا في حقّسكّان شمال إفريقيا، شبيها بذلك الذي عبّر عنه قبريانوس في عهد إضطهاد ديسيوس، حيث أشار إلى تعوّد الأفارقة على الإرتداد في قوله «الكذب الذي تخصّصوا فيه»، بل أنه شكّك ضمنيا في عقيدتهم المسيحيّة باستعماله للفظ «الكذب»، و هو بذلك يعتبرهم منافقين.

قال سالفيان ما قاله و نسي بل و تناسى أن سكّان شمال إفريقيا، الذين كانت أغلبيتهم دونتست[11]، لم يختاروا الكاثوليكيّة، بل أجبروا على إعتناقها قهرا، تحت التّعذيب و الإضطهاد، خاصّة في عهد أوغستين، الذي عمل على إطفاء روح المقاومة عند السّكان الأصليّين، و تنمية الخضوع والإذعان لسلطة الكنيسة، و منه للمستعمر الرّوماني و ذلك بالوشاية و تحريض الجنود الرّومان ضدّ بني جلدته الأمازيغ. بالتّالي فإن تخلّي الأمازيغ عن الكاثوليكيّة لنفس الأسباب لا يمكن إلا أن يكون طبيعيّا ومنطقيّا.

أمضى أوغستين جلّ حياته في محاربة إخوته الأفارقة، المتمرّدين على السّلطة الرّومانيّة، ذلك لصالح الكنيسة الكاثوليكيّة، الموالية للسّلطة الرّسميّة. فلم يدع أوغستين فرصة إلا و استغلّها لمحاربة الخارجين عن المذهب الكاثوليكي، خاصة «إخوته» من الدّوناتيّة[21] و من الدّوارين[31].

إنتقد أحمد عكاش أوغستين لما أظهره من إزدواجيّة في التّعامل مع النّاس، حيث قال: «يبدو أن أوغستين، الذي لم يتأثّر مطلقا بمعانات العبيد و الفلاحين المحرومين من أراضيهم، قد أشفق هذه المرّة على أرباب الأسر النّبلاء، و على الأغنياء من أصحاب العقّارات...» (*AKKACHE*, 2006, p. 28).

كان هذا تعليقا وانتقادا لأحد نصوص أوغستين التي عبّر فيها عن تعاطفه مع الطّبقة البرجوازية والنّبيلة، عندما اضطهدها الدّوارون، وفيما يلي محتوى نص أوغستين: »أقلقت مجموعة من الرّجال الضائعين هدوء الأبرياء. من ذا من السّادة الذي لم يخشى عبده حين يكون هذا الأخير تحت حماية هؤلاء الثّوار؟ من كان يجرؤ على مجرّد تهديد أحد هؤلاء قطّاع الطّرق؟ كان بإمكانهم القيام بأي شيء : سلب المؤن من المنازل، رفض دفع الدّيون. كان وجود هؤلاء الثّوار ضمان لاستمرار هذه التّجاوزات. كان الأسياد يمزّقون صكوك الرّق لأسوء العبيد ويعتقونهم، كما كانوا يتنازلون عن الدّيون لصالح المستدينين، خوفا من العصيّ، و الحرائق و الموت المحتوم. كل من تجاهل تهديدات الثّوار القاسية أجبر على تنفيذها بالضرب المبرح. لقد هدموا وأحرقوا

بيوت ناس أبرياء لأنهم أهانوهم. صمد أرباب عائلات نبيلة و ذووا أخلاق و تربية راقية بصعوبة لضرباتهم، حيث أجبروا على تدوير الرحى التي ربطوا إليها، كان ذلك تحت ضربات السّوط و كأنهم دواب.«(*in AKKACHE*, 2006, p. 28).

يُظهر هذا النّص موقف أوغستين الموالي للطّبقة البرجوازيّة، و المتعاطف معها بوضوح تام، في حين لم يسجّل له مثل ذلك مع بقيّة سكّان شمال إفريقيا رغم أن هذه الممارسات الوحشيّة كانت شائعة في إفريقيا، و لطالما عانى منها إخوته الأفارقة و هم تحت الرّق، و كأن ذلك شيء طبيعي عندما تكون الضّحيّة من الأفارقة الفقراء، و كأنهم هم الدّواب بل أن من الدّين و الأخلاق و الإنسانيّة أن نرحم حتى الدّواب!

من المؤلم أن يأتي هذا من «أخ» نطمع في مؤازرته لنا، لكنّ الأصعب أن يكون هذا «الأخ» «رجل دين» أيضا. و الأكثر من ذلك، أنّ أوغستين لم يتردّد يوما في إختيار أيّ وسيلة كانت لإجبار سكّان شمال إفريقيا عامة للدّخول في صفّ الكنيسة الرّسميّة (الكاثوليكيّة)، إذ لم يكتفي بالدّعوة للمسيحيّة الكاثوليكيّة، بل تجاوز ذلك إلى القمع و الوشاية.

هذا ما يظهر من قول أوندري جوليان، الذي أكّد أن «الكنيسة الرّسميّة (الكاثوليكيّة) استأنفت دعايتها في نشاط و حزم، حيث أوحى أوغستين بالتّنازلات، و تفانى في المناضرات، و حثّ إلى تنظيم المجامع التي يملي عليها قراراته، كما أنه أكثر من شكاويه و وشاياته للسّلطات ضدّ الخوارج (خاصّة الدّوناتيّة)، و قد بلغ في ذلك حدّ الإزعاج، بل أنه كان يهيّئ للتدخّل المباشر للسّلطة المدنيّة في الصّراع.» (*JULIEN*, 1994, p.266).

يؤكّد مسناج أنه كان لأوغستين اليدّ في الدّعاية التي قامت بها الكنيسة ضدّ الدّوناتيّة، حيث جزم أن «رجال الدّين الكاثوليك، الذين درسوا سنة 403م مشكلة توسّع نطاق المذهب الدّوناتي، قد إتّفقوا على تنفيذ إقتراح القدّيس أوغستين، المتمثّل في تنظيم ملتقيات لإلقاء محاضرات مضادّة للدوناتيّة بهدف جلب أكبر قدر ممكن من النّاس، بما فيهم رجال الدّين الدّوناتيّين. نجح أوغستين بالذّات في هذه المهمة، إذ إعتنق المسيحيّة الكاثوليكيّة على يده العديد من النّاس.» (*MESNAGE*, 1913, p 510) مع ذلك لم يضعُف الخارجين عن الكنيسة الكاثوليكيّة مطلقا، كما لم ينتهي الصّراع بين مختلف الفرق المسيحيّة.

كانت الكنيسة الكاثوليكيّة، وعلى رأسها أوغستين، شديدة التعصّب، حيث إحتجّت بشدة من أجل إلغاء مرسوم إمبراطوري ينصّ على حريّة المعتقد سنة 410 ميلادي. لم تكتفي الكنيسة الرّسميّة بإلغاء مرسوم التّسامح، بل حكمت بالموت أو النّفي على المنشقّين، في مجمع قرطاجة لسنة 411 ميلادي، و الذي عقد في الأصل بحجّة جمع الشّمل، و تحقيق الوحدة من جديد.

صدر إثر هذا المجمع، الذي كان تحت رئاسة أوغستين، مرسوم 30 جانفي لسنة 412 ميلادي والذي كان يحمل خيارين اثنين: فإمّا أن يعود الخوارج إلى أحضان الكنيسة (الكاثوليكيّة)، و إمّا أن تصادر كلّ أموالهم، و أن يعذّبوا أو أن يجلوا عن البلاد. (*MARAVAL*, 2005, p.312)

عمل أوغستين على إطفاء روح المقاومة عند السّكان الأصليّين، و تنمية الخضوع و الإذعان والسّلبيّة خدمة للمستعمر الرّوماني، و ساعيا لتوسيع نطاق الكاثوليكيّة في إفريقيا. من أجل ذلك أيضا ساهم كبار أصحاب الأملاك —على حسب قول مونسو— في الدّعوة للمسيحيّة الكاثوليكيّة، واجتهدوا في استرجاع الوحدة الدّينيّة على أراضيهم في نوميديا.

(*inJULIEN*, 1994, p.268)

يعلق أوندري جوليان على ما قاله مونسو فيصرّح بأنّه: «لا يوجد ألفاظا أنسب من هذه (إطفاء روح المقاومة عند السّكان الأصليّين، وتنمية الخضوع و الإذعان و السّلبيّة خدمة للمستعمر الرّوماني و خدمة للكاثوليكيّة) لنعبّر على ما لقيه الفلاحون من ضغط لإجبارهم على الخضوع لسلطة الكنيسة.»(*JULIEN*, 1994, p.268).

نجح أوغستين و أصحابه الكاثوليك –سواء من الرّومان أو من المرومنين (*ROMANISÉ*)، من رجال السّلطة الدّينيّة و العسكريّة- في إضعاف الدّوناتيّة بالقوة، خاصة في البروقنصليّة، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على هذه الجماعة كلّية، و تحديدا في نوميديا، حيث «استمرت أعشاش كثيرة من هؤلاء الخوارج، في تدبير مقاومة خفيّة، عنيدة و متواصلة ضدّ السّلطة الأجنبيّة المحتلّة، إنتهت بتقويض أركانها و بانهيار الحكم الرّوماني ببلادنا الإفريقيّة.» (صفر 1959 م، ص. 369).

بل أنّ أحمد صفر يجزم أن الدّوناتيّة استمرت في الوجود، و إن كانت منكمشة ومجهولة، حتى الفتح الإسلامي (صفر، 1959 م، ص. 368). يؤكد كل من دوكري و فنتار نفس الفكرة فيما نصّه: «يظهر للعيان أن حزب دونا قد زال من الوجود، غير أن التّقاليد الخاصة به ظلّت مستمرة بشكل خفي كما كان الأمر بالنّسبة لكلّ الكنائس الصّامتة، مع بعض القفزات المفاجئة التي تبعثه من جديد، و التي ظلّت تقلق البابا حتى العهد البيزنطي.» (*DECRET* et *FANTAR*, 1998, p. 305).

تجدر الإشارة إلى أنه رغم كل هذه الصّراعات الدّينيّة، و رغم كل الدّماء التي سفكت في شمال إفريقيا «باسم الرّب» و «باسم المسيح»، و رغم كل الخوف والرّعب الذي عاش فيه كلّ المتواجدين في شمال إفريقيا، سواء كانوا من السّكان المحليّين، أو من الرّومان المستعمرين و أتباعهم، فإن الكتّاب الكاثوليك يصفون، بل و يعنونون فترة تواجد أوغستين على رأس كنيسة بونة بفترة «إنتصار الكنيسة»، ذلك نتيجة ارتداد العديد من سكّان شمال إفريقيا عن الدّوناتيّة، و دخولهم في كنف المسيحيّة الكاثوليكيّة.

رغم كلّ الخسائر في الأرواح، التي شهدتها المنطقة، سعد أوغستين بانهزام أعدائه الدّوناتيّة وتحدّث باعتزاز عن الذين عادوا إلى حضن الكنيسة الرّومانيّة الكاثوليكيّة، و هو يؤكدّ أن عددهم كان كبيرا جدا، حيث أكّد في كتاباته أن سكّان الجبال والصّحاري المجاورة جاؤوا بكثرة لطلب التّعميد و رؤية الكهّان. (1913 *in MESNAGE*) p. 538.

يستشهد مسناج بما قاله أوغستين ليجزم بأنّ عدد المعمّدين (لصالح الكنيسة الرّومانيّة الكاثوليكيّة) في هذه الفترة كان ضخما، و هو يجزم أن منهم الدّوناتيّة و منهم الوثنيّين. يضيف مسناج إلى شهادة أوغستين، حجم المغاطس المستعملة في شمال إفريقيا عامة، و عدد الأحواض التي شملت عليها، حيث يؤكد أن حركة إعتناق الكاثوليكيّة كانت كبيرة إلى حد الإضطرار إلى التّخلي عن المغاطس التّقليديّة وبناء مغاطس أخرى أكبر، تشمل على عدد أكبر من الأحواض، و قد خصّ بالذكر مغاطس منطقة تبسة التي كانت –حسب قوله- الأكبر في منطقة شمال إفريقيا على الإطلاق، ما يدل على كثرة المعمّدين في فترة «انتصار الكنيسة». (*MESNAGE*, 1913, p.p. 538- 539).

إن ولاء و إخلاص أوغستين اللامحدود للكنيسة الرّسميّة من جهة، و للرّومان من جهة أخرى، جعل كلّ الكتّاب، و الباحثين الغربيّين ينظرون إليه ويصوّرونه على أنّه بطل. كيف لا و قد كان له

الفضل في التّرويج للثّقافة اللاتينيّة، و تثبيت الكنيسة الكاثوليكيّة في شمال إفريقيا، و منها تثبيت الاستعمار الرّوماني نفسه. بل أنّهم يكتبون تاريخ شمال إفريقيا من خلال إنجازاته، أو كما قال أندري جوليان لقد: «صار تاريخ إفريقيا المسيحيّة مرتبطا بتاريخه هو (أي أوغستين) على الأقل بالنسبة إلينا (أي الكاثوليك).»(*JULIEN*, 1994, p.266).

◄4 – مثلنة و تقديس أوغستين منذ العهد الاستعماري إلى يومنا هذا!:

كافأ الكاثوليك أوغستين –رغم «إفريقيّته»– بسخاء ، حيث لم يكتفوا بتقديس اسمه، ليصبح «القديس أوغستين»، على غرار «القديس قبريانوس» ، بل استمروا في تمجيده بتخليد اسمه على اسم أهم المعاهد الكاثوليكيّة الأوروبيّة[41]، و بإقامة أيّام دراسيّة تشيد بفكره و نضالهفي سبيل الكاثوليكيّة إلى يومنا هذا، كما أقاموا له ضريحا في عنابة.

لقد تمّ نقل بقايا رفات «أوغستين» يوم 30 أكتوبر 1842م، من بافيا (*PAVIE*، بإيطاليا) إلى طولون (*TOULON*)، و منها إلى عنابة على يد القس دوبوش (*DUPUCHE*. 1800م–1856م)[51] في موكب مهيب، و في حفل دينيّ ضخم، حضره قساوسة من كلّ الدّرجات، و ضيوف من مختلف البلدان و المقاطعات الأوروبيّة[61]، كلّ ذلك تحت إشراف و حماية السّلطات المدنيّة و العسكريّة الاستعماريّة الفرنسيّة في عنابة. (سعد الله، 1998 ص.ص. 111 – 112).

و عند وصول الرّفاة إلى مرسى عنابة تعالت الأناشيد و الأغاني الدّينيّة من كلّ السّفن المصاحبة للموكب، ثمّ أقام دوبوش القدّاس أمام الجماهير، كلّ هذا و «قوس النّصر» منتصبا، يرحّب برفاة أغستين بعبارات «لقد رجعت هيبونة يا أوغستين»! و في اليوم التّالي سار الموكب في الطّريق الرّوماني القديم إلى الضّريح المخصّص لأوغستين، حيث وضعت بقايا رفاته، كما تمّ تدشين تمثال له من البرونز وضع على رخامة بيضاء، بشكل يجعله متّجها نحو فرنسا(سعد الله، 1998، ص.111)، اعترافا بفضلها في استرجاع بونة، التي مات مقهورا لأجلها أثناء حصارها من طرف الوندال سنة 430م. (*LANCEL ET MATTEI*, 2003, P.100).

«لقد جرى كلّ ذلكفي تحدّ سافر لمشاعر المسلمين. كان الحفل الذي جمع عشرين ألفا في طولون، و آلاف الحاضرين و الفضوليّين في الجزائر قد جرى تحت حماية العلم الفرنسي و الجيش، و مباركة المارشال بوجو(*BUGEAUD*) نفسه، و كانت السّلطات المدنيّة و العسكريّة مشاركة في التّظاهرة بالمال و السّفن و الضّيافة و الرّعاية المعنويّة...» (سعد الله، 1998، ص.112).

تجدر الإشارة إلى أنّ السّلطات الاستعماريّة فشلت آنذاك في دفع الجزائريّين إلى التّماهي لأغستين، الذي أرادت –من خلال هذا الحفل الضّخم، المهيب، المليء بالرّسائل الرّمزيّة – أن تقدّمه كقدوة لجميع الجزائريّين، حتى تعيد ربطهم بماض بعيد، أرادت أن تكتبه بالشّكل الذي يخدمها. مع ذلك لم ييأس المنصّرون من المحاولة، حيث ظلّوا يغرسوا في أذهان الجزائريّين العديد من الأفكار الكاذبة، التي لم تأتي بثمارها إلا بعد استقلال الجزائر.

فمن كان يظنّ أن تقام في الجزائر المستقلة يوما احتفالات لتكريم «القدّيس أوغستين»!؟ و من يصدّق أن تساهم في تمجيد و تخليد أوغستين و فكره التّنصيري الإستعماري إحدى أهمّ مؤسّسات

الجزائر الحديثة: المجلس الإسلامي الأعلى، الذي نظّم أياما دراسية في عنابة[71] (سنة 2001م)، تشيد بفكر «القدّيس أوغستين» و تتغنّ ببطولاته، تحت شعار «حوار الحضارات»، و تحت الإشراف العلمي لأوندري ماندوز (*ANDRÉ MANDOUZE*)، أحد أهم المفكّرين الكاثوليك المعاصرين، المتخصّصين في الفكر الأوغستيني!؟

إنتقد محمد الهادي الحسني تنظيم أيام دراسيّة لتخليد الفكر الأوغستيني في الجزائر، و التي سماها «وعدة أوغستين» في مقال نشره في البصائر في أفريل من سنة 2001م، حيث قارن باستهزاء الولائم التي تعوّد الجزائريون القيام بها لتقديس الأولياء الصّالحين و ما أسماه «بوعدة أوغستين». إنتقد محمد الهادي الحسني في مقاله هذا كلّ ما دار أو قدّم في هذه الأيام الدّراسيّة، إبتداءا من مدّتها، و نوع المؤكولات و المشروبات التي قدّمت فيها، و اللّغة التي سادت فيها، و «الولي» الذي أقيمت باسمه، و الهدف المتوخى تحقيقه منها.

و مما قاله في انتقاد أوغستين و «وعدته» ما نصّه: «وعداتنا تقام لأناس، منهم المعروفون و منهم المجهولون، و لكنّهم كلّهم مسلمون، أحبّوا قومهم وخدموهم، و حاولوا إرشادهم إلى صراط مستقيم أما «وعدة أوغستين»، فصاحبها كافر، لأنه يؤمن بالتّثليث، و دافع عنه بكتاب سمّاه: «في الثّالوث» (*DE TRINITATE*)، و ربّنا عزّ و جلّ يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة / 73)، و هو ممّن إتّخذ الرّومان –أعداء قومه– أولياء، و تحيّز إليهم، و حرّضهم على بني جنسه هذا إذا أخذنا بمقولة أمازيغيته.» (الحسني، 2004 ص.ص. 258-257).

تساءل أحمد بن عيسى عن الأسباب الحقيقيّة وراء الدّعاية لشخصية أوغستين و فكره، هذه الدّعاية التي بدأت في الجزائر المستقلّة منذ أكثر من عقدين من الزّمن، و التي بدأت بتناول أوندري ماندوز لأهمّيّة أوغستين في تاريخ المغرب العربي، بل و تاريخ الغرب نفسه. كان ذلك في مقال في جريدة لوموند (*LE MONDE*) تحت عنوان «التّحدي الجزائري، بين الماضي و الحاضر»، في 16 أوت من سنة 1980م. يجلب أحمد بن عيسى –في هذا الصّدد– إنتباهنا للتّوقيت الذي نشر فيه المقال، حيث أنه جاء أربعة أشهر فقط بعد أحداث «الربيع الأمازيغي» الذي شهدته منطقة القبائل! مؤكّدا أن التّوقيت قد أختير بعناية شديدة جدّا. (*BENAISSA*, 2002, p 119)

يشير أحمد بن عيسى بعد ذلك إلى محتوى المقال نفسه، و الذي حاول موندوز الرّبط فيه بين تاريخ المغرب العربي و تاريخ أوروبا من خلال أوغستين، بل أن موندوز إدّعي «أن الحضارة الغربيّة ما كانت لتبلغ ما وصلت إليه دون المغرب» (*in BENAISSA* 2002, p. 121). يعلّق أحمد بن عيسى على هذا التّزييف للتّاريخ بما نصّه: «إنّه بمعنى آخر يخبرنا (أي موندوز)، و هو يدغدغ مشاعرنا كبربر، أن المقوّمات الأساسيّة للحضارة الغربيّة، في القرون الوسط والحديثة، نابّجة عن العبقريّة الجوهريّة لجدّنا أسقف بونة». غير أن هذا مجرّد كذب بالنّظر للحقيقة التّاريخيّة، و حقيقة الأفكار.(*BENAISSA* 2002, p 121).

يبرّر أحمد بن عيسى موقفه هذا فيقول: «يكفي أن نفحص بدقّة العوامل التي ساهمت في شهرة «القدّيس أوغستين»، لندرك أن الحقيقة عكس ذلك تماما: إن الحضارة الغربيّة هي التي صنعت أوغستين وفقا لصورتها. الواقع أن هذا الأخير لم يبرز من بين عامّة بربر زمانه إلا نتيجة اكتسابه للمواطنة الرّومانيّة التي تمتّعت بها عائلته منذ أجيال خلت. يوجد، إلى جانب هذا العامل السّياسي الغربي، عامل ثقافي من

نفس النّوع: تلقينه للثّقافة اللاتينيّة منذ نعومة أظافره زد إلى ذلك إهتمامه بالثّقافة الإغريقيّة، حيث إقتبس المعاني و كيّفها للدّفاع على المسيحيّة الكاثوليكيّة. هذا العامل الثّقافي هو الذي صقل نظرته للعالم. يوجد أخيرا عامل تأثير غربي ثالث، و هو تبنيّ أوغستين للعقيدة المسيحيّة بنفس القيم التينشرتها الكنيسة الرّومانيّة. إنظمّ أوغستين إلى المسيحيّة الرّومانيّة و دافع عنها بحميّة و عصبيّة، بعد أن عجز عن تحليل الوقائع و فهمها بالعقل. بالتّالي نلاحظ أن المحدّدات الأساسيّة لشهرة «القدّيس أوغستين» عوامل غربيّة، غريبة تماما عن دائرة الخصائص البربريّة.» (*BENAISSA*, 2002, p 121) بمعنى آخر فإن شخصيّة «القدّيس أوغستين» كما يروّج لها الغربيّون منذ العهد الاستعماري إلى يومنا هذا ليست بالنّسبة للأمازيغ سوى «أسطورة».

لم تكن أسطورة «رسوليّة الكنيسة الإفريقيّة» و لا «خرافة قداسة أوغستين» أو«أكذوبة نصرانيّة شمال إفريقيا»، هي المزاعم الوحيدة التي روّج لها المستعمر الفرنسي لجذب الجزائريّين إلى أحضان الكنيسة، بل أنّه اختلق «قصصا» و أساطير عديدة أخرى، معظمها استعمل في إطار سياسة المستعمر الشّهيرة ألا و هي سياسة «فرّق تسد»، و لعلّ من أخطرها «أسطورة منطقة القبائل المسيحيّة الأصل» و «أسطورة الأصل الجرماني لسكّان منطقة القبائل» التي روّجها المحتلّ الفرنسي بهدف دمج منطقة القبائل، تمهيدا لتنصيرها.

◄ 5 – أسطورة نصرانية سكّان منطقة القبائل خلال العصور المسيحية الأولى:

لخّص الجنرال دوماس هاتين الأسطورتين فيما نصّه: «كلّما حفرنا هذا الجذع القديم، وجدنا تحت القشرة الإسلاميّة الأصول المسيحيّة، و بهذا نصل إلى أنّ سكّان القبائل جرمانيو الأصل، عرفوا المسيحيّة قديما، و قد قبلوا القرآن و لكنّهم لم يعملوا به. (عن بقطاش،2007، ص. 140) ذهب البارون أوكابتان – الذي كتب مؤلّفات عن منطقة القبائل– إلى نفس ما قاله دوماس، ذلك فيما نصّه: «إنّ سكّان القبائل الذين عرف إسلامهم بالفتور يميلون إلينا بعاداتهم و أخلاقهم.» (عن بقطاش 2007 ص. 158).

حاولت معظم الدّراسات الاستشراقيّة التي أجريت حول منطقة القبائل أثناء الحقبة الاستعماريّة الفرنسيّة (و هي كثيرة و متنوّعة) أن تروّج لهذه الأفكار من أجل خلق طائفة مسيحيّة داخل منطقة القبائل تخدم المصالح الفرنسيّة في الجزائر، أو كما قال الضّابط كاريت (*CARETTE ANTOINE - ERNEST HIPPOLYTE*، 1808م – 1890م) «الذي يرى بأنّ بلاد القبائل التي بقيت بعيدة عن الفرنسيّين مدّة طويلة، يجب عليها أن تكون المساعد الأكبر في مشاريع الفرنسيّين، و الشّريك الوحيد في جميع أعمالهم.» (عن بقطاش،2007ص. 158).

غير أنّ الكثير من العسكريّين، و رجال الدّين و السّياسيّين الفرنسيّين كانوا يدركون جيّدا أن قبول الجزائريّين عامّة، و سكّان منطقة القبائل تحديدا للمستعمر الفرنسي لا يمكن أن يتحقّق ما لم يتمّ تنصيرهم، كما يظهر من قول الملك لويس فليب حينما خاطب مجلس وزرائه فيما نصّه: «يجب أن يكون هناك حسن تدبير في العمل على تنصير العرب (الجزائريّين)، الذين لا يمكن أن يكونوا فرنسيّين إلا إذا تنصّروا.» (عن بقطاش، 2007، ص.42).

و عليه وضع المستعمر الفرنسي – بما فيه من عسكريّين و منصّرين – استراتيجيّة لتنصير منطقة القبائل، قامت في أول الأمر على إثبات الجذور

المسيحيّة للمنطقة. (سعيدي، 2009، ص. 206) كان ذلك من خلال العديد من الدّراسات الإستشراقيّة، التي أشادت بالحقبة الرّومانيّة المسيحيّة من جهة، و صوّرت الفتوحات الإسلاميّة – من جهة أخرى- على أنّها فترة استعماريّة، فرض خلالها «العرب الغزاة» الإسلام على البربر بالإكراه والسّيف، ذلك بعد أن قطعوهم عن الحضارة الغربيّة و عن الكنيسة، و عليه، إدّعت هذه الدّراسات أنّ الاستعمار الفرنسي قد جاء ليعيد ربط هذه المنطقة البربريّة «بأصولها الغربيّة المسيحيّة».

و من أهمّ هذه الدّراسات، نذكر أبحاث أوجين دوماس، الذي زعم أنّ المرأة القبائليّة تحمل على وجهها آثار إنتمائها التّاريخي للطّائفة المسيحيّة (كما سبق أن وضّحنا)، زد إلى ذلك دراسات الأب دوقا الذي عكف على دراسة منطقة القبائل و اجتهد في البحث عن آثار لبقايا مسيحيّة في المنطقة عساها تساعده في إقناع القبائل للعودة إلى «أصولهم المزعومة». (عن بقطاش، 2007، ص.140) دون أن ننسى طبعا المجهودات التي بذلها مسناج في ذلك أيضا، و التي يجب ألا يستهان بها.

لم يملّ المستشرقون من تكرار أكذوبة «الأصول النّصرانيّة» لسكّان منطقة القبائل بالذّات، حتى تحوّلت إلى أسطورة يردّدها القبائل أنفسهم، كما شهد على ذلك هنوطو و لوتورنو سنة 1873م في كتابهما عن «التّقاليد القبائليّة» (كما سبق أن أشرنا). هذا رغم أنّ هذه الأكذوبة قد فنّدها المؤرّخون القدامى، كما فنّدها المؤرّخون المعاصرون أيضا. (كما بيّننا ذلك آنفا)

أكّد المؤرّخون أنّ التّنصير في شمال إفريقيا كان نتاج الاستعمار الرّوماني، أو كما قال فيكتور ساكسر (*V. SAXER*) «جاءت المسيحيّة إلى إفريقيا على آثار روما، و التّنصير قد إقتفى رومنة البلاد.» (*SAXER, 1980*). يربط كلّ من دوكري فرونسوا و فنتار محمد أيضا التّنصير في شمال إفريقيا بالرّومنة، فهما يؤكّدان أنّ المناطق الأكثر رومنة هي التي كانت فيها الطّائفة المسيحيّة كبيرة. (*DECRET et FANTAR*, 1998, p. 292).

أهمّ دليل يعتمد عليه ساكسر و دوكري فرانسوا و فنتار محمد و غيرهم من المؤرّخين في هذا الطّرح هو أن التّنظيم الهيكلي للنّصرانيّة الإفريقيّة هو نسخ للتّنظيم الجغرافي السّياسي و الإداري الرّوماني، كما أن نطاق انتشار النّصرانيّة لم يتجاوز حدود مناطق النّفوذ الرّوماني. (*DECRET* , 1996, p.14)

هذا ما أكدّه مسناج أيضا فيما نصّه: «لو قارننا خريطة المستعمرات الرّومانيّة و خريطة الأسقفيّات في عهد القديس قبريانوس، لوجدنا أنه –فعلا– في كلّ المناطق المستعمرة يوجد بعض الأسقفيّات. يوجد بدون شكّ فراغات بين الأسقفيّات، ستملأ مع الوقت، لكن التّنصير قد إمتدّ حتى حدود الإمبراطوريّة نفسها.» (*MESNAGE*, 1913, p.474)، و عليه فإنّ كلّ مناطق شمال إفريقيا التي بقيت خارجة عن الحكم الرّوماني لم تطلها المسيحيّة، نذكر منها منطقة القبائل، و الأوراس و البيبان و كل السّلسلة الجبليّة لموريطانيا القيصريّة. (*MESNAGE*, 1913, P.P 494-495).

إنتشرت المسيحيّة بشكل كبير نسبيّا في كلّ من موريطانيا السّطايفيّة و موريطانيا القيصريّة حيث أحصيت فيها 130 أسقفيّة في القرن الخامس للميلاد، غير أنّها –كما توضّح أرنولد دومينيك– كانت كلّها متواجدة على سواحل البحر المتوسّط وفي التلّ، و بعضها عند مدخل الهضاب العليا. حتى القرن الخامس للميلاد، لم تبلغ المسيحيّة منطقة القبائل قط، و كذلك الأمر بالنّسبة لبقيّة المناطق الغربيّة. (*ARNAULD*, 2001, p.p. 150-

151)

يجزم مسناج أيضا أن منطقة القبائل لم تكن يوما منطقة مسيحيّة، سواء تعلّق الأمر بمنطقة القبائل الصّغرى (أي منطقة بجاية و ضواحيها) أو تعلّق الأمر بمنطقة القبائل الكبرى (أو تيزي وزو حاليا و ضواحيها). إعتمد مسناج في إثبات ذلك على إحصاء عدد الأسقفيّات التي لم تتجاوز سنة 430م ثلاث أسقفيّات داخل منطقة القبائل، في حين كان يحيط بها إثنى عشرة أسقفيّة فقط[81]. إلى جانب هذا النّقص الفادح للأسقفيّات في منطقة القبائل، يشير مسناج إلى الغياب الكلّي تقريبا —على حسب تعبيره— لأيّ آثار مسيحيّة أو لأي رمز من رموز المسيحيّة عن منطقة القبائل. (*MESNAGE*, 1913, P.P. 616-626).

يبرّر مسناج غياب المسيحيّة عن منطقة القبائل ببقاء سكّانها بعيدين عن الرّومان، وبالتّالي عن تأثيرهم، وهو يستشهد في ذلك بما جاء على لسان المؤرّخ الرّوماني أميان مرسيلان (*AMMIEN MARCELIN*) سنة 375م، حيث وصف سكّان منطقة القبائل بالبربر المتوحشّين (*MESNAGE, in* 1913, P. 615)، و قد ضلّوا حتى سنة 430م متحصّنين بجبالهم، فلم يطلهم تأثير الرّومان لا ثقافيّا (عن طريق الرّومنة)، و لا دينيّا (عن طريق التّنصير) أو كما قال مسناج: »ببقائهم (أي القبائل) هكذا مقاومين للإندماج، قاوموا عامل التّنصير نفسه. (*MESNAGE*, 1913, P. 615)

رغمّ ما توصّل إليه المؤرّخون من حجج حول الأصول الرّومانيّة للكنيسة الإفريقيّة، و حول محدوديّة إنتشارها بين السّكّان الأصليّين لشمال إفريقيا، زد إلى ذلك تأكيدهم على بقاء المناطق الجبليّة بما في ذلك منطقة القبائل خارج النّفوذ الرّوماني المسيحي فإنّ المستعمر الفرنسي كان يصرّ على تأكيد الأصل المسيحي لسكّان منطقة القبائل بالذّات. و ما كان يقوم بذلك —في تصوّرنا- سوى من أجل إزالة الفوارق الإثنيّة، التي كانت تفصل القبائل عن الفرنسيّين، و بالتّالي أن تخلق حاجة لتوحّد، أو تماهي سكّان منطقة القبائل للغربيّين من جهة، و النّفور من إخوانهم الجزائريّين بحجّة الاختلافات العرقيّة بينهم من جهة أخرى.

ولعلّ ما يؤكّد وجهة نظرنا هذه، هو محاولة العديد من الدّراسات -التي أنجزت في الفترة الاستعماريّة والتي تناولت سكّان الجزائر إتنوغرافيّا- تقسيم السّكان إلى بربر أو سكان أصليّين لشمال إفريقيا وصفتهم بالتّسامح الدّيني و حبّ العمل والتّفتّح الفكري... حتى تقرّبهم أكثر من الفرنسيّين و إلى عرب وصفتهم بالدّخلاء الغزاة، المتعصّبين دينيّا والكسلاء، و المتأخّرين حضاريا...

ومن هذه الدّراسات نشير إلى كتاب «مسائل جزائريّة: العرب و القبائل»، حيث أراد مؤلّفه دو سانت أيمور (*CAIX DE SAINTE AY MOUR*) سنة 1891م «أن يطلع أبناء الوطن الأم الذين يجهلون بأنّ كلمة الأهالي (*INDIGÉNES*) تعني العرب و البربر، بأنّ العرب لا يمكن تغييرهم أو تحويلهم بينما يمكن إدماج القبائل، فالعرب كسالى مسترخون، بطيئو الحركة، منطوون، خياليّون، ذوو مزاج بارد، و شبه حزين و متعصّبون. أما البربري، فإنّه عامل مجتهد، يتحلّى بروح المغامرة و بالحسّ العملي و هو في علاقته مع الخارج حازم نشيط منبسط وذو حيويّة و انشراح (...) و هو إقتصادي نزيه، فضولي، و في واقع الأمر سطحيّ التّديّن.» (عن أجرون، 2004، ص. 49)

ذهب ليوريل (*J. LIOREL*) سنة 1892م في كتابه «قبائل جرجرة» إلى أبعد من ذلك، حيث بلغ به الحدّ إلى إقتراح تولّي القبائل أنفسهم عمليّة

الإستطان، ذلك فيما نصّه «قد يكون القبائل العنصر المستوطن الممتاز، الذي يمكن أن نسخّره لتحويل الجزائر إلى فرنسا حقيقيّة.» (عن أجرون 2004ص.ص. 50-49)، أما الدّكتوران باتونديي (*BATTANDIER*) وترابوت (*TRABUT*) فقد بالغا سنة 1898م في تشبيه القبائل بالأوروبّيين عامّة، و بالفرنسيّين خاصّة، كما عبّرا عن إعجابهما بمؤسّساتهم (تجماعث خاصّة) التي تجسّد الحكومة الدّيمقراطيّة بأتم معنى الكلمة، و يخلصان إلى القول بأنّ هناك الكثير مما يمكن أن يأمله الفرنسيّين فيهم لمستقبل المستعمرة. (عن أجرون، 2004، ص. 50)

وعلى ضوء هذه المواقف العنصريّة، التّمييزيّة ظهر المزيد من الدّراسات الإجتماعيّة، و السّياسيّة والدّينيّة، التي كانت تهدف أساسا إلى بثّ الرّوح الإقليميّة، وزرع الشّقاق بين الجزائريّين. ومن أهمّ هذه الدّراسات تلك التي قام بها عدد كبير من العسكريّين، والتي اهتمّوا فيها بمختلف جوانب حياة سكّان منطقة القبائل الإجتماعيّة، والتّاريخيّة والدّينيّة.

«وقد حاولوا من خلالها سلخ هؤلاء السّكان عن باقي المجتمع الجزائري، بل المجتمع العربي الإسلامي بصفة عامّة. و يجدر بنا أن نذكّر بأنّها وبحسب إتّجاهاتها، كانت تستهدف إلى خلق النّعرات بإظهارها كيان بلاد القبائل كيانا منفصلا عن باقي السّكّان، حتى تخلق طائفة تتمكّن السّلطة الفرنسيّة من تسخيرها لأغراضها السّياسيّة في الجزائر عن طريق إدماجها في المجتمع الفرنسي.» (بقطاش، 2007 ص.ص.139-138).

والمثير في الأمر أنّ المستعمر الفرنسي —في إطار محاولاته الحثيثة لجذب القبائل إليه- غالبا ما يقدّم نفسه، داخل هذه الدّراسات الإستشراقيّة في صورة البطل، بل الأخ الرّحيم، الذي يسعى إلى تحرير إخوته «البربر، الذين طردهم العرب، و حاصروهم في الجبال، و استغلّهم الأتراك.» (أجرون، 2004ص. 47).

بينما هو —في الواقع- شيطان، يبحث عن أدنى إختلاف بين الجزائريّين يمكن أن يستغلّه لتشتيت وحدتهم، و إضعاف قواهم، كما يظهر في المقولة التّالية، التي كان يردّدها الفرنسيّون المستعمرون: «إنّ عدم وجود تجانس بين السّكان في الجزائر سيكون عونا قويّا لنا للمضيّ قدما في إنجاح سعينا إلى صدّ النّاس عن التّقيّد بالدّين. و نحن على استعداد لتفتيت كتلة الأهالي، و تشتيت وحدتهم عن طريق الحلّ المنهجي للمؤسّسات التي تكفل لهم قوّة التّماسك.» (عن أجرون، 2004، ص. 47)

شكّلت هذه الدّراسات الاستشراقيّة الكثيرة جدّا، و المتنوّعة، القاعدة الأساسيّة التي ارتكز عليها المنصّرون بعد ذلك في نشاطاتهم داخل منطقة القبائل، حيث حاولوا أن يبعدوا السّكان عن كلّ ما يمكنه أن يربطهم بالإسلام أو المسلمين، و أن ينمّوا عندهم حاجة للتّماهي و للإنتماء إلى الغرب عامّة وإلى الفرنسيّين خاصّة.

لا يختلف إثنان في كون هذه المحاولات البائسة قد باءت بالفشل في العهد الاستعماري، حيث أظهرت الدّراسات التّاريخيّة مدى مقاومة سكّان منطقة القبائل للتّنصير إبّان الفترة الاستعمارية وتمسّكهم الشّديد بالإسلام دينا؛ فرغم كلّ الضّغوط التي تعرّضوا إليها، و كلّ الإغراءات المادّيّة التي عرضت عليهم، و رغم التّلاعب الذي لجأت إليه القوى الاستعماريّة بوجهيها العسكري و الدّيني، لم تحصد مختلف الإرساليات التّنصيريّة (الكاثوليكيّة منها و البروتستانتيّة) سوى الفشل الذّريع.

غير أن الموضوعية تقتضي أن نعترف بأن الأمور لم تعد كما كانت في السابق، حيث صارت العلاقات بين الجزائريين الناطقين بالعربية، و أولائك الناطقين بالقبائلية من سكان منطقة القبائل تحديدا تقوم أساسا على التّمييز العرقي. لقد نجح الاستعمار في خلق مشكلة هويّة عميقة في منطقة القبائل، بما نشره من أفكار عرقيّة، جعلت القبائل يسعون باستمرار نحو التّميّز عن غيرهم من الجزائريّين. لا يسأمالعديد من القبائل اليوم من التّعبير عن استيائهم الشّديد اتّجاه الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، و عنرفض لكلّ ما يمتّ لها بصلة، و قد وصل بهم الحد إلى المطالبة بالعودة إلى الأصول البربرية، أو بتقليد الغرب، من أجل اللّحاق بركب الحضارة الغربيّة. وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على تماهيهم للغرب تارة، ولصورة الأجداد كما صورها لهم الغرب نفسه تارة أخرى (مخلوف-بن تونس، 2015، ص. 90).

لقد تطوّر الأمر عند البعض ليصل بهم الحدّ إلى التّعبير عن استيائهم اتّجاه دينهم (الإسلام)، كما هو الأمر عند بعض المتنصرين، الذين وصلت بهم المور إلى تغيير دينهم، و اختيار النّصرانية من أجل تحقيق حاجتهم للإنتماء. لقد دفع مثلنة الماضي الكثير من الشّباب القبائلي إلى التعبير عن حنينه والرغبة في العودة إليه، و بعد أن كانوا يشيدون ببعض الأبطال الأمازيغ، الذين دافعوا عن أرضهم وعرضهم ضد المستعمر الروماني، أمثال مسينيسا ويوغرطا، صاروا يتغنون و يشيدون بآباء الكنيسة الأوائل، خاصة منهم أغستين، الذي يفتخرون بأصله الأمازيغي ويحثون للإقتداء به من خلال التّنصر مثله جاهلين أو متجاهلين حقيقة الرّجل. (مخلوف-بن تونس2015، ص.ص. 91-90).

◄ الخلاصة:

القليل من الناس من يرى العلاقة بين علم النّفس والأنثربولوجيا، أو علم النفس و التّاريخ، بل أن الكثير من يتهمنا في الخوض فيما لا يخصنا، أو في غير إختصاصنا، مع أن فرويد (أب التحليل النفسي) مسّ العديد من المواضيع الخاصة بالدين والحضارة والحرب، و الأنتربولوجيا...في مؤلفاته نذكر منها «قلق الحضارة»، «الحب والحرب الحضارة والموت» «الطوطام و التابو»... و نحن نرى أن دراسة التّاريخ بالنسبة للشّعوب يحمل نفس المعنى الذي تحمله دراسة تاريخ الحالة بالنسبة للفرد، و أن الهوامات التي قد تكون عندنا، و التي قد تدفعنا إلى مثلنة الموضوع، ثم التّماهي له، هي نفسها الهوامات التي قد تدفعنا إلى تحريف التاريخ، أو إلى قراءته بالشّكل الذي يناسبنا أكثر، فنجعل من بعض الأنذال أبطالا، بينما نقصّر في حقّ البعض الآخر سواء كان ذلك بشكل شعوري أو غير شعوري، من حيث نعلم و من حيث لا نعلم.

ولعل ما قد يصعّب علينا الأمور هو أن نستقي معلوماتنا عن التّاريخ من وثائق و مؤلفات استعمارية وضعت أصلا لتضليلنا، في حين أن العودة إلى الماضي، سواء من خلال قراءة التّاريخ، أو من خلال التّداعي الحر (لقراءة التّاريخ الشخصي) في التحليل النفسي يهدف أساسا إلى رؤية المستقبل بشكل أكثر وضوحا.

من أجل ذلك نتفق مع محمد شريف ساحلي الذي حثّ على تخليص التاريخ من آثار الاستعمار (*DÉCOLONISER L'HISTOIRE*) عندما قالأن استعادة الذّاكرة الجماعية عمل شاق و مضني، غير أنه شيء ممتع(SAHLI, 2007, P 7) فهو صحي بالنسبة للشّعوب، التي يمكن أن تستعيد عافيتها، وأن

تسير بثقة أكبر نحو مستقبلهاالذي لا يمكن بناءه على الأكاذيب و الأساطير و الخرافات، إنما على حقائق علمية موضوعية، وهذا طبعا يستدعي منا أن نتصالح مع تاريخنا.

الهوامش :

1 – *LA GUERRE DE TRENTE ANS* من سنة 1618م إلى سنة 1948م، التي دارت رحاها في أوروبا الوسطى، و قد شاركت كلّ القوى الأوروبيّة في هذه الحرب باستثناء انكلترا وروسيا.

2 – *LA GUERRE DE QUATRE-VINGTS ANS* ، من سنة 1568م إلى سنة 1648م، و التي انتفضت فيها دول أوروبا الغربيّة المتمثّلة في هولندا، لوكسمبورغ و بلجيكا و شمال فرنسا ضد المملكة الأسبانيّة.

3 – *GUERRE DES CAMISARDS OU GUERRE DES CÉVENNES*. من سنة 1702م إلى سنة 1704م، حيث تمرّد البروتستنت الفرنسيّون ضدّ السّلطة الملكيّة.

4 – و هي عقيدة مهمة في المسيحية.

5 – و هي الوثيقة المسمّاة: إنجازات الشّهداء -*ACTA MAR-TYRIUM*

6 – مدوروش حاليا، المتواجدة على بعد 50 كلم من سوق هراس

7 – الباحث المشهور في تاريخ أدب إفريقيا المسيحيّة الرّومانيّة.

8 – هذا لأن المسيحيّين يعتقدون أن نهاية العالم لن تأتي إلا بعد أن تعمّ الدّعوة للمسيحيّة كلّ أنحاء العالم.

9 – في عهد إضطهاد الإمبراطور ديسيوس*DECIUS*، سنة 250 ميلادي.

10 – نسبة للمسيحيّة الأريوسيّة CHRISTIA *NISME ARIEN*. التي وضع مذهبها أريوس سنة 323م، و هو مذهب الوحدانيّة، حيث ينفي ألوهيّة يسوع المسيح.

11 – نسبة لمذهب دونا *DONA*، و هي شيعة خاصة بإفريقيا، بل أنها الوحيدة التي نبعت منها، و تطوّرت فيها طيلة ثلاثة قرون.

12 – و تجدر الإشارة إلى أنّ الدّوناتية لم تنتج إثر خلافات عقائديّة كما هو الأمر عادة، إنما هي نتيجة صراعات نظاميّة بين عدّة أساقفة. كان السّبب المباشر في تشكّل هذه الشّيعة هي الجدل و الصّراع حول مصير المرتدّين في عهد ديوكلسيانوس *DIOCLETIANUS*، 284م–385 م، و قد كانوا عدة، تماما كما حدث من قبل، في عهد ديسيوس.

13 – *LES CIRCONCELLIONS*. و هي حركة ثوريّة إجتماعيّة، ظهرت في نوميديا في حوالي سنة 340م إثر الإضطهاد الذي تعرّض إليه النّوميديّين، و الاستغلال الذي عانى منه الفلاحون الأفارقة لصالح الرّومان المستعمرين و أتباعهم من الأفارقة المرومنين.

14 – *L'AUGUSTINUM*

15 – و هو أوّل أسقف يعيّن في الجزائر المستعمرة، و قد كان ذلك سنة 1838م.

16 – الكورسيّة، و السّردينيّة، و الإسبانيّة، و الإيطاليّة والمالطيّة...

17 – تحت رعاية رئيس الجمهوريّة ذاته.

18 – مع الإشارة إلى أن الأسقفيّة قد تكون عبارة عن بلدة صغيرة، أو قرية أو حتى مجرّد مزرعة. لم يكن الأسقف في هذه الحالة يمثّل أو يؤثّر دينيا إلا على عدد قليل جدا من النّاس.